أثر كتب غريب الحديث في تأليف المعاجم اللغوية العربية

*محمود مبارك عبيدات وحسين مصطفى غوانمة**

ملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة مدى تأثير كتب غريب الحديث في معاجم اللغة العربية، المُنْجَز منها والمأمول إنجازه؛ فعلى صعيد المُنجَز منها ظهر أثر كتب الغريب في جانبين؛ أولهما المادة اللغوية، إذ تبيّن أن علماء اللغة قد اعتمدوا كتب الغريب اعتماداً كاملاً في معاجمهم اللغوية. وثانيهما ترتيب المادة اللغوية في المعاجم، فقد ظهر أن الترتيب الهجائي الذي يعتمد الحرف الأول من الكلمة قد ظهر أول مرة عند علماء الغريب، وذلك في كتاب الغريبين للهروي، ثم اقتبسه منهم علماء اللغة. وعلى صعيد المأمول تبيَّن أن كتب الغريب تشكّل مصدرًا أساسياً في تأليف المعجم التاريخي للغة العربية؛ بسبب تركيزها الكبير على مسألة التطور الدلالي للألفاظ. وقد عالج البحث هذه المسائل بمنهج استقرائي تحليلي في جزئه الأول، مع الاعتماد على الإحصاء في بعض الأحيان، وبمنهج تاريخي في جزئه الثاني، عند الحديث عن أثر كتب غريب الحديث في تأليف المعجم التاريخي للغة العربية. وقد دفعَنَا لهذا العمل ما وجدناه من الاعتماد الكبير عند أصحاب المعاجم اللغوية على كتب غريب الحديث، وما لألفاظ الحديث من دور في نمو اللغة العربية وتطورها.

الكلمات الدالة: غريب الحديث، المعاجم اللغوية.

المقدمــة

ارتبط علم اللغة العربية منذ نشأته بالدين الإسلامي ارتباط النتيجة بالسبب، إذ إن الحفاظ على هذا الدين وفهمه فهماً سليماً كان السبب في وضع العلوم اللغوية بكل مستوياتها المعجمية والنحوية والصرفية والصوتية. ولمّا كان القرآن الكريم والحديث الشريف هما الممثلان الأساسيان لهذا الدين كان من المحتّم أن يكونا محور الدراسات اللغوية العربية، ولأن فهم نصوص القرآن والسنة لا يتم إلا بلغة الشعر العربي كان لا بد من أن تشمله الدراسات اللغوية إلى جانب القرآن والسنة في البحث والدراسة.

وقد ظهر اهتمام علماء اللغة بلغة القرآن الكريم منذ عصور مبكرة بدأت بعصور الصحابة رضوان الله عليهم، إذ يمثّل تفسير ابن عباس لألفاظ القران الكريم باكورة هذه الدراسات، وقد عدّ بعض العلماء هذا التفسير نواة المعاجم العربية، إذ بدأت الدراسة في هذا الميدان من ميادين اللغة بالبحث عن معاني الألفاظ الغريبة في القرآن الكريم، ولذلك نجد التآليف الأولى في المعاجم العربية تحمل اسم "غريب القرآن"[1].

أما بالنسبة للغة الحديث النبوي الشريف فعلى الرغم من خلاف النحاة في مسألة جواز الاستشهاد بلغة الحديث الشريف بين مانع لذلك ومجوّز له ومتحفّظ عليه في المستوى النحوي والصرفي[2] إلا أنهم لم يتركوا الجانب المعجمي لنصوص الحديث، بل وجهوا عنايتهم إلى هذا الأمر، إذ تمثّل كتب غريب الحديث معاجم ترصد ما ورد في الأحاديث من غريب الألفاظ، فتفسّره وتدلل على تفسيره بلغة القرآن والشعر العربي.

وقد بدأت حركة التأليف في غريب الحديث في أواخر القرن الثاني الهجري، واختُلِف في أول من ألّف في هذا العلم[3]، فقد ذكر أن النضر بن شميل(203هـ) هو أول من ألّف فيه، وقيل هو أبو عبيدة معمر بن المثنى(210هـ)، غير أن الثابت هو أن أول مصنَّف وصلنا يحمل هذا العنوان هو كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام(224هـ)[4]، ثم توالت المؤلفات في ذلك، فقد صنّف فيه أبو عمرو الشيباني(206هـ)، وقطرب (206هـ)، والأصمعي (213هـ)، وأبو زيد الأنصاري (215هـ)، إلا أن هذه المصنّفات لم تصلنا.

ومن الكتب التي وصلتنا في هذا الموضوع كتاب غريب الحديث لابن قتيبة عبدالله بن مسلم (276هـ)[5]، كما وصلتنا المجلدة الخامسة من غريب الحديث لأبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي (285هـ)[6]، وكتاب الخطابي البستي

* كلية الآداب والعلوم الإنسانية والتربوية، جامعة العلوم الإسلامية العالمية؛ وكلية الآداب، جامعة الإسراء، عمّان، الأردن. تاريخ استلام البحث 2013/5/27، وتاريخ قبوله 2013/11/20.

© 2014 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

(388هـ)[7]، وكتاب الغريبين لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي (401هـ)[8]، إلا أن هذا العلم قد وصل أوجه في كتابين هما الغاية فيه، وهما كتاب الفائق في غريب الحديث للزمخشري (538هـ)[9]، وكتاب النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (606هـ)[10].

ويلاحظ أن معظم الذين ألّفوا في هذا العلم هم من اللغويين كالنضر بن شميل (203هـ) وقطرب (206هـ) والفراء وأبي عبيدة معمر بن المثنى (209هـ) والأصمعي (216هـ) وأبي زيد الأنصاري (215هـ) وأبي عبيد القاسم بن سلام (224هـ) وابن الإعرابي (231هـ) والمبرد (286هـ) وابن كيسان(299هـ) وثعلب (291هـ) وأبي موسى الحامض (305هـ) وابن دريد (321هـ) وأبي بكر الانباري (328هـ) وابن درستوية (347هـ) والزمخشري (538هـ) وابن الدهان (569هـ) وابن الأثير (606هـ) وابن الحاجب (646هـ)[11].

ويجب قبل البدء بالحديث عن أثر كتب غريب الحديث في المعاجم العربية أن نميّز بين نوعيين من العلوم التي تتناول الحديث الشريف، هما: الغريب من الحديث، وغريب الحديث.

فالغريب من الحديث يتصل غالباً بالسند وقد يتصل بالمتن من حيث الزيادة والاختلاف في الرواية، ويعرفه علماء الحديث بأنه ما انفرد بروايته أو رواية زيادة فيه راوٍ واحدٌ في أي موضع وقع التفرد به من السند، وعليه يوصف الحديث بأنه حديث غريب، وهو فن ينتمي إلى علوم الحديث. أما غريب الحديث فيتعلق بألفاظ الحديث، ولا يوصف عليه الحديث بأنه غريب، وإنما يوصف لفظ من ألفاظه بأنه لفظ غريب، وعليه فكتب غريب الحديث تقوم بتفسير ما جاء في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأحاديث الصحابة وتابعيهم من ألفاظ غريبة وكلمات مشكلة، والتعريف بمعانيها وضبط بنيتها والوقوف على تصريفها واشتقاقها وتأليف حروفها، وهو علم لا يخوض غماره إلا من اتصف بالدراية وضبط الرواية والملكة الحافظة والتثبت التام والتحري الأمين، وعليه فغريب الحديث ينتمي إلى علوم اللغة [12].

وبناء على ذلك يمكن تعريف غريب الحديث بأنه ما وقع في متن الحديث من الألفاظ الغامضة، البعيدة من الفهم لقلة استعمالها أو لدقة معناها [13]. كما يُعرَّف غريب الحديث بأنه الخفي الغامض والبعيد من الفهم والمشكل الذي يحتاج إلى بيان، وأهم أسباب غرابته قلة الاستعمال، وتطرّق الفساد إلى العربية[14].

وقد عكف علماء اللغة العربية القدماء على دراسة ما ورد في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وأحاديث الصحابة والتابعين من ألفاظ غريبة، ووضعوا في ذلك مصنفات كثيرة أصبحت فيما بعد مصدراً مهماً من المصادر التي تستقى منها العربية، وتمثل كتب غريب الحديث الجانب العملي لاهتمام اللغويين بالحديث الشريف، كنوع من التعويض عن قلة اهتمامهم بالحديث في جانب التقعيد النحوي كما أشرنا.

وقد كان للأمم الأخرى من غير العرب فضلٌ في ظهور هذه المؤلفات وأمثالها، فبعد أن دخلت هذه الأمم في دين الله (الإسلام) أفواجاً، ظهرت الحاجة إلى تفسير الغريب من ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف واللغة، فظهرت في ذلك مؤلفات كُتِبَ لها أن تكون فيما بعد مصادر يستعين بها العربي وغير العربي على فهم نصوص دينهم الإسلامي، فقد تتبع علماؤنا الأوائل " الألفاظ الغريبة في متن الحديث وبدأوا التأليف بين موادها، فكانت آثارهم مادة مهمة من مواد المعجم اللغوي، فنهل من معين هذا اللون من ألوان اللغة صناع المعاجم وشرّاح كتب الأدب وأهل التفسير" [15].

أثر كتب الحديث في معاجم اللغة

يظهر أثر كتب غريب الحديث في معاجم اللغة في جانبين، هما:

الأول: المادة اللغوية.

الثاني: ترتيب المادة المعجمية.

المادة اللغوية:

كان لكتب غريب الحديث أثرٌ واضحٌ في كتب اللغة، فقد زادت في مادتها وأَثْرَت اشتقاقها، وشرحت غامضها، حتى فاضت كتب اللغة بغريب الحديث.

وقد نص علماء اللغة ومصنفو المعاجم العربية على أهمية هذه الكتب، واعتمادها مصدراً من مصادر مؤلفاتهم.

فقد ذكر ابن فارس (395هـ) في مقدمته لمعجمه مقاييس اللغة أنه اعتمد في بناء معجمه على خمسة كتب هي العين للخليل (175هـ) وغريب الحديث ومصنف الغريب لأبي عبيد القاسم بن سلام (224هـ) والمنطق لابن السكيت (244هـ) والجمهرة لابن دريد (321هـ)، وعقّب على ذلك قائلاً: "فهذه الكتب الخمسة معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة،وما بعد هذه الكتب فمحمولٌ عليها وراجع إليها، حتى إذا وقع الشيء النادر نصصناه إلى قائلة إن شاء الله"[16].

كما اعتمد ابن فارس(395هـ) في معجمه مجمل اللغة على كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام(224هـ) في غريب الحديث، وغيره من كتب غريب الحديث كغريب أبي عبيدة معمر ابن المثنى(209هـ) وغريب النضر بن شميل(203هـ) وغريب شمر(255هـ) وغريب ابن قتيبة (276هـ) – وهو معاصر له–[17].

واعتمد الأزهري(370هـ) في تهذيب اللغة على كتاب أبي عبيد(224هـ) في غريب الحديث[18] وكذلك اعتمد على غريب

الحديث للحربي(285هـ)[19].

كما نص الصاغاني(577هـ) في مقدمة العباب على أن من مصادره في هذا المعجم غريب الحديث لأبي عبيدة (209هـ) وغريب أبي عبيد القاسم بن سلام (224هـ) وغريب الحربي (285هـ) وغريب ابن قتيبية (276هـ) وغريب الخطابي (388هـ) والملخص في غريب الحديث للباقرحي (516هـ) والفائق للزمخشري (538هـ)[20].

أما ابن منظور(711هـ) في لسان العرب فقد جعل كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير(606هـ) أحد مصادره الأساسية في هذا المعجم، وهذه المصادر هي ما ذكره ابن منظور في مقدمة معجمه وهي المحكم لابن سيده(458هـ) وتهذيب اللغة للأزهري(370هـ) والصحاح للجوهري(393هـ) والتنبيه والإيضاح لابن بري(582هـ)، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير(606هـ)[21].

يقول ابن منظور(711هـ) في كتابه: "وقصدت توشيحه بجليل الإخبار، وجميل الآثار مضافاً إلى ما فيه من آيات القرآن الكريم والكلام على معجزات الذكر الحكيم، ليتحلى بترصيع دررها عقده، ويكون على مدار الآيات والأخبار والآثار والأمثال والأشعار حله وعقده، فرأيت أبا لسعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري قد جاء في ذلك بالنهاية، وجاوز في الجودة حدّ الغاية، غير أنه لم يضع الكلمات في محلها، ولا راعى زائد حروفها من أصلها، فوضعت كلاً منها في مكانه، وأظهرته مع برهانه"[22].

وقد قمنا بعمل إحصاء لمعرفة مدى إفادة ابن منظور من ابن الأثير في النهاية، فوجدنا ابن منظور قد صَرّح بذكر ابن الأثير في المواضع التي أفاد فيها منه في (1572) موضعاً[23] هذا علاوة على أن ابن منظور قد أفاد من كتب الغريب الأخرى، فقد رجع إلى غريب الحربي(285هـ)[24] وغريب أبي موسى المديني(175هـ)[25] وغريب ابن الانباري(328هـ)[26] وغريب ابن قتيبة(276هـ)[27] وغريب أبي عبيد(224هـ)[28] وغريب الحميدي[29] وغريب شمر(255هـ) [30] وغريب أبي عبيدة(209هـ) [31] والغريبين للهروي(401هـ)[32] والفائق للزمخشري(538هـ) [33] وغريب النضر بن شميل(203هـ)[34] وغريب الخطابي(388هـ)[35].

وفي عمل آخر قمنا بإحصاء عدد المواد اللغوية في كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، فوجدنا أن عدد هذه المواد بلغ حوالي (4300) مادة لغوية، ونحن لا نتصور أن ابن منظور قد ترك أياً من هذه المواد دون ذكر في معجمه الذي بلغت عدد مواده في إحصاء قام به بعض العلماء، حيث بلغ عدد مواده (80000) مادة لغوية، ويمكن تفسير عدم التصريح بابن الأثير في بقية المواد اللغوية التي وردت عنده بافتراض أن تلك المواد هي من المواد المشتركة الموجودة عند كل المصادر التي اعتمدها ابن منظور، وهي المصادر الخمسة المذكورة سابقاً، أما المواطن التي صرّح فيها ابن منظور بذكر ابن الأثير فهي مواطن ستكون في أغلب الظن مواطن تفرّد بها ابن الأثير دون غيره من المصادر التي اعتمدها ابن منظور.

ولتأكيد هذه الفكرة قمنا بمقارنة بين بعض المواد اللغوية الموجودة في كتاب النهاية ولسان العرب مما لم يصرح فيها ابن منظور بأنه أخذها من ابن الأثير فوجدنا النصوص تتطابق تطابقا تاما بين الكتابين.

فمن ذلك مثلا ما جاء في مادة (أبب): وفي حديث أنس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ قوله عز وجل:" وفاكهة وأبا " وقال: فما الأب، ثم قال: ما كُلِّفنا أو ما أمرنا بهذا، الأبّ: المرعى المتهيّء للرعي والقطع، ومنه حديث قس بن ساعدة: فجعل يرتع أبّاً وأصيد ضبّاً.

فهذا النص موجود بحرفيته في النهاية [36] وفي لسان العرب[37].

ومنه كذلك النص التالي في مادة (أبر): وفي الخبر: خير المال مُهرة مأمورة وسِكَّة مأبورة، السكة: الطريقة المصطفة من النخل، والمأبورة: المُلقَّحة. يقال: أَبَرْتُ النخلة وأبَّرتها فهي مأبورة ومؤبَّرة. ومنه الحديث من باع نخلا قد أُبِّرتْ فثمرتها للبائع إلا أن يشترط المُبتاع، ومنه حديث علي بن أبي طالب في دعائه على الخوارج:" أصابكم حاصب ولا بقي منكم آبِرٌ. أي رجل يقوم بتأبير النخل وإصلاحها، فهو اسم فاعل من أَبَرَ المخففة ويروى بالثاء المثلثة. **وسيذكر في موضعه** [38].

إذ من الملاحظ أن ابن منظور(711هـ) أخذ هذا النص بحرفيته من ابن الأثير، حتى أنه ذكر العبارة المشار إليها في النص (وسيذكر في موضعه)، علماً بأنها قد لا تلزمه.

ومثل هذا كثير في الكتابين[39].

الثاني: ترتيب المادة المعجمية [40]

اتبع مؤلفو كتب غريب الحديث أكثر من طريقة في إيراد المادة اللغوية في معاجمهم ويمكن إجمال هذه الطرق فيما يأتي:

أولاً: طريقة المسانيد

تأثر أصحاب كتب غريب الحديث بأصحاب المسانيد في ترتيب مواد كتبهم، ومضمون هذه الطريقة أن ترتَّب المادة اللغوية حسب الحديث الشريف، إذ يورد الحديث الشريف ثم يقوم مؤلف الكتاب بتفسير غريب ذلك الحديث، حتى إذا انتهى منه انتقل إلى حديث آخر.

وقد رتبت الأحاديث في المصنفات التي اتبعت هذه الطريقة بما يسمى بطريقة الأسانيد أو المسانيد، وذلك بأن يبدأ المصنف بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم بأحاديث الصحابة بادئين بأحاديث الخلفاء الراشدين فالمبشرين بالجنة وباقي الصحابة كابن عباس وخالد بن الوليد وغيرهما، بعدها يذكر أحاديث الصحابيات ثم أحاديث التابعين، ويختم كتابه بأحاديث لا يعرف قائلوها.

ومن الكتب التي اتبعت هذا النهج كتب الغريب الأولى كغريب أبي عبيد (224هـ)، وغريب ابن قتيبة (276هـ) والخطابي (388هـ).

ثانياً:الترتيب المعجمي

وهي طريقة ترتيب المادة حسب الترتيب الهجائي لحروف المعجم بالنسبة للكلمات الغريبة إذ تستخرج الكلمات الغريبة من الأحاديث ثم ترتب حسب ترتيبها الهجائي.

وأول كتاب وصلنا على هذا النهج في ترتيب المادة حسب الحرف الأول من حروف المادة اللغوية هو كتاب الغريبين لأحمد بن محمد الهروي المتوفي (401 هـ)، ويقال بأنه مسبوق في هذا النهج بكتاب الجيم في الغريبين لشَمِر بن حمدوية (255 هـ)، فقد ذكر ياقوت الحموي(626هـ) أنه صنف كتاباً كبيراً جداً رتبه على حروف المعجم، ابتدأ فيه بحرف الجيم لم يسبق إليه، أودعه تفسير القرآن وغريب الحديث"[41].

على أن الهروي(401هـ) في مقدمته لكتاب الغريب ينفي أن يكون أحدٌ قد سبقه إلى هذا النهج، يقول: " ونعمل لكل حرف باباً، ونفتح كل باب بالحرف الذي يكون أوله الهمزة ثم الباء ثم التاء إلى أخر الحروف " إلى أن يقول: " وكنت أرجو أن يكون سبقني إلى جمعها وضمّ كل شيء إلى لِفْقِهِ منها، على ترتيب حسن واختصار كافٍ سابقٍ، فكفاني مؤونة الدأب وصعوبة الطلب، فلم أجد أحداً عمل ذلك إلى غايتنا هذه"[42].

ثم انتشر هذا المنهج في ترتيب المواد اللغوية في معاجم غريب الحديث فقد اعتمده الزمخشري(538هـ) في الفائق وابن الجوزي(597هـ) في غريبه وابن الأثير(606هـ) في النهاية.

أما على مستوى المعاجم اللغوية فقد كان الزمخشري (ت 538هـ) في معجمه أساس البلاغة أول من اتبع الترتيب الألفبائي لأوائل الكلمات في تاريخ المعاجم اللغوية العربية [43].

وبذلك يكون الزمخشري(538هـ) مسبوقاً في هذا المنهج بكتابين من كتب الغريب هما كتاب الجيم لشمر بن حمدوية(255هـ) وكتاب الغريبين لأحمد بن محمد الهروي(401هـ)، وعليه يمكن الحكم بأن هذا المنهج قد دخل التأليف المعجمي من خلال كتب غريب القرآن وغريب الحديث.

ثالثاً: الجمع بين طريقة المسانيد وطرق اللغويين

ويمثل غريب الحربي(285هـ) هذا النهج، إذ اتبع طرق المحدثين فيما يسمى بترتيب المسانيد التي ذكرناها سابقاً، وأضاف إليها طريقة من طرق اللغويين وهي نظام التقاليب والمخارج التي نجدها في معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي(175هـ).

وهذه الطريقة تقوم على تصنيف الكلمات حسب أول حرف منها، وترتيب الحروف حسب المخارج بادئين بحروف الحلق ثم الأقرب فالأقرب إلى أن يصلوا إلى الحروف الشفوية بعدها حروف الجوف، وكل كلمة يعرض لها تقليبها بتقاليبها المختلفة ويعرض لمعاني التقليبات.

كتب الغريب والمعجم التاريخي للعربية

يقصد بالمعجم التاريخي ذلك المعجم الذي يؤرّخ لظهور كل كلمة في اللغة، ويتبع ما طرأ على دلالتها من تطور وعلى لفظها من تغير، كما يبين أصل الكلمة وما إذا كانت قد اقترضت من لغة أخرى مباشرة أو عبر لغات وسيطة، ويستند المعجم التاريخي في تقديم تلك المعلومات إلى النصوص المتوفرة، فالمعجم التاريخي يرتب معاني الكلمة ترتيباً تاريخياً، فيورد المعنى الأقدم أولا ويضع بعده سنة ظهوره مع شاهد أو اقتباس من النصوص المدونة، ثم يأتي بالمعنى الثاني الذي استعلمت فيه تلك الكلمة وسنة ظهوره وجملة مقتبسة وردت فيها تلك الكلمة بذلك المعنى وهكذا. يقول محمد حسن عبدالعزيز في تعريف المعجم التاريخي للغة العربية:" المعجم التاريخي للغة العربية ديوان للعربية، يضم بين دفتيه ألفاظها وأساليبها، ويبين تاريخ استعمالها أو إهمالها، وتطور مبانيها ومعانيها عبر العصور والأصقاع، ويقِّم مدخلاً لغويًا للحضارة العربية والإسلامية"[44].

وقد ظهرت المعاجم التاريخية في أوروبا بسبب ازدهار اللسانيات الحديثة فيها فقد وضع معجم أوكسفورد للغة الانجليزية على أسس تاريخية. كما وضع معجم تاريخي للغة الفرنسية.

وتبرز الحاجة الملحة لوضع معجم تاريخي للغة العربية، وعلى الرغم من أن جهوداً بذلت من أجل تحقيق هذا المشروع إلا أنها لم تكلَّل بالنجاح إلى هذا الوقت، فقد حاول المستشرق فيشر الألماني عمل هذا المعجم إلا انه لم يستطيع أن يكمل مشروعه، ومازال العرب منذ ذلك الوقت إلى الآن يحاولون عمل هذا المشروع وإتمامه[45]، ولكن الظروف ما زالت تحول دون ذلك.

وتشكل كتب غريب الحديث مصدراً مهمًا من مصادر المعجم التاريخي للغة العربية، إذ تمثل هذه الكتب لغة فترة

محددة ومعروفة من تاريخ اللغة العربية هي العصر الإسلامي الأول، والمادة اللغوية الأساسية لهذه الفترة هي القرآن والحديث الشريف وشعر تلك الفترة وخطبها، وقد تنبّه فيشر لأهمية لغة الحديث الشريف في صناعة المعجم التاريخي للغة العربية، فجعل من مصادره لهذا المشروع كل الكلمات غير المشهورة التي وردت في صحيحي البخاري ومسلم [46].

وتعد كتب غريب الحديث مصدرًا أساسيًا لتفسير الكلمات غير المشهورة في صحيح البخاري ومسلم وغيره من كتب الحديث الأخرى، والحق أن اعتماد هذه الكتب في صناعة المعجم التاريخي أفضل من اعتماد صحيحي البخاري ومسلم؛ وذلك لأن هذه الكتب اهتمت بكل الغريب الذي ورد في الحديث، سواء أكان الحديث من أحاديث البخاري ومسلم أم من غيرهما.

وقد ركّز بعض مصنفي كتب الغريب على مسألة التطور الدلالي للألفاظ، كالزمخشري(538هـ) في الفائق في غريب الحديث، وابن الأثير(606هـ) في النهاية في غريب الحديث والأثر مثلاً.

ومعلوم أن التطور الدلالي هو الأساس الذي يقوم عليه المعجم التاريخي لأي لغة، وقد ذكر علماء الدلالة ثلاثة أشكال لتطوّر دلالة الألفاظ، هي[47]:

1- تعميم الدلالة (أو توسيعها)، وذلك بأن يتغير معنى اللفظة من الدلالة على فرد أو شيء إلى الدلالة على أفراد أو أشياء كثيرة، فمثلا كلمة البأس كانت تدل على الشدة في الحرب ثم أصبحت تدل على الشدة.

2- تخصيص الدلالة (أو تضييقها)، وهو ضد تعميم الدلالة، إذ تخصص دلالة ألفاظ كانت تستعمل للدلالة على مجموعة من الأشياء لتصبح دالة على شيء واحد من تلك الأشياء، ومثال ذلك كلمة المأتم التي كانت تعني الاجتماع ثم أصبحت تعني الاجتماع للعزاء، وكلمة السبت التي كانت تعني الدهر، ثم أصبحت تعني يوما من أيام الأسبوع.

3- نقل الدلالة، وذلك بطرائق شتى كالاستعارة والمجاز، وللنقل أشكال عدة إذ قد يكون برقي الدلالة أو انحطاطها أو غيرهما.

ونحن نجد أمثلة هذه الأشكال ماثلة في كتب غريب الحديث، ليس فقط بتحديد دلالة الألفاظ كيف كانت وكيف أصبحت، ولكن بذكر القانون أو السبب الذي يحكم ذلك التغيّر في كثير من الأحيان، وسنقوم بعرض بعض الأمثلة على أشكال التطور الدلالي السابقة من كتب غريب الحديث[48].

تعميم الدلالة

جاء في مادة (حلب) في الفائق: لمّا رأى سعد بن معاذ كثرة استشارة النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يوم بدر قال: إنه إنما يستنطق الأنصار شفقا ألا يستحلبوا معه على ما يريد من أمره. قال الزمخشري: استحلاب القوم مثل إحلابهم، وهو اجتماعهم للنصرة وإعانتهم إلا أن في الاستحلاب معنى طلب الفعل والحرص عليه، **وأصل الإحلاب: الإعانة على الحلب، ثم كثر حتى استعمل في كل موضع**، والمعنى: ما يستشيرهم إلا خوفا من أن يتركوا إعانته[49].

فقد بيّن الزمخشري أن لفظ الاستحلاب قد انتقل من دلالته الخاصة على الإعانة في الحلب إلى دلالته العامة وهي الإعانة في كل شيئ، وقد وضّح أن القانون اللغوي الذي يحكم هذا التغير هو قانون كثرة الاستعمال.

وفي مادة (زبد) جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم أهدى إليه عياض بن حمير قبل أن يسلم، فردّه وقال: إنا لا نقبل زَبْدَ المشركين. سئل عنه الحسن فقال: رِفدهم، يقال: زبدته أزبِده وزبَّدته: إذا رَفَدْته ووهبت له، قال زهير:

أصحابُ زَبْدٍ وأيامٍ وأنديةٍ
من حاربوا أعذبوا عنهم بتنكيل

وهذا مما **عرض فيه العموم بعد الاختصاص** كأحلب[50].

وقد وردت أمثلة كثيرة على هذا النمط عند ابن الأثير في كتابه النهاية، فقد ورد في أثناء تعليقه على حديث الحديبية والمغيرة "وهل غسلت سوأتك إلا أمسِ"[51].

قال ابن الأثير: " السوأة في الأصل الفروج، **ثم نُقِلَ إلى كُلِّ ما يُستَحيا منه إذا ظهر من قول أو فعل**، وهذا القول إشارة إلى غدرٍ كان المغيرة فعله مع قومٍ صحبوه في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم"[52].

فهذا النص يشير إلى ما تعرّض له لفظ (السوأة) من تطور دلالي نحو تعميم معناه، فقد وضع اللفظ في الأصل لمعنى الفرج، ثم أصبح بمعنى كل ما يَستحيي منه الإنسان، ولذلك أطلق في الحديث على غدر المغيرة تجاه القوم.

وفي حديث "لا يبولنّ أحدُكم في مستحمِّة"[53]

قال ابن الأثير: "المستحمّ الموضع الذي يغتسل فيه بالحميم، وهو في الأصل الماء الحار، **ثم قيل للاغتسال بأي ماء كان استحمام** ".

والأمثلة على هذا النمط كثيرة إلا أننا نتركها لننتقل إلى النمط الثاني.

تخصيص الدلالة

أشار علماء غريب الحديث إلى تطور الدلالة نحو التخصيص بالقدر الذي أشاروا فيه إلى تطورها نحو التعميم، فمن ذلك مثلاً ما قاله ابن الأثير(606هـ) في حديث: "فأقاموا عليه مأتماً"[54].

إذ يقول: " المأتم في الأصل مجتمع الرجال والنساء في الحزن والسرور، **ثم خُصّ به اجتماع النساء للموت**، وقيل هو للشوابّ منهن لا غيره"[55]

إن كلام ابن الأثير(606هـ) السابق يشير إشارة صريحة إلى التطور الدلالي الذي أصاب لفظ المأتم، إذ تطوّر من معناه العام (مجتمع الرجال والنساء في الحزن والسرور) ليصبح معناه خاصاً باجتماع النساء فقط في حالة الموت، وقد أشار إلى تخصيص آخر فيه وهو قصر اجتماع النساء بالشواب منهن فقط.

ومن التخصيص كذلك ما علّق به ابن الأثير في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "أيها الناس قد فُرض عليكم الحجَّ فحجوا"[56].

قال ابن الأثير: " الحجُّ في اللغة: القصد إلى كل شيء، **فخصه الشرع بقصد معين ذي شروط معلومة**"[57].

وفي كلام ابن الأثير السابق يظهر لنا كيف تطوّرت دلالة اللفظة من التعميم نحو التخصيص، مع بيان زمن ذلك التحول في قوله (فخصه الشرع)، إذ حدث هذا التطور بعد مجيء الإسلام.

نقل الدلالة

وأما التطور نحو انتقال الدلالة فيتعلق بتغيّر الدلالة لغرض مجازي، ومن ذلك ما جاء في حديث: " كان إذا أراد البراز أبعد"[58].

وفي رواية: " اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل"[59].

قال الزمخشري(538هـ): "البراز الحاجة، سمّيت باسم الصحراء كما سميت بالغائط"[60]، فلفظ البراز من الألفاظ المرتبطة بقضاء الحاجة، انتقلت إلى هذه الدلالة عن طريق المجاز المرسل الذي علاقته المحلية، وقد صرّح الزبيدي(1205هـ) بهذه العلاقة في قوله: " وهو من إطلاق المحل وإرادة الحال كغيره من المجازات المرسلة"[61].

ومن التغيّر الذي يصيب دلالة الألفاظ ما ورد في حديث: " رُبّ متخوِّض في مال الله تعالى"[62].

قال ابن الأثير(606هـ): " أصل الخوض: المشي في الماء وتحريكه، ثم استعمل في التلبُّس بالأمر والتصرُّف فيه، أي رُبّ متصرِّف في مال الله تعالى بما لا يرضاه الله، والتخوّض: تفعُّل منه، وقيل هو التخليط في تحصيله من غير وجهه كيف أمكن"[63].

فإذا كان أصل الخوض المشي في الماء وتحريكه فإن في ذلك خلطاً له وتعكيراً لصفوه، وهذا ما يوضّح العلاقة في استعارة التخوّض للتصرّف في المال أو التخليط في تحصيله من غير وجهه.

وقبل أن نقفل باب الحديث عن أهمية كتب غريب الحديث في بيان التطور الدلالي الذي أصاب ألفاظ اللغة، نذكر نصًّا يشير إلى قانون مهمّ من القوانين التي تفسِّر لنا أسباب التغيُّر الدلالي، وهو قانون اللامساس، أو المحظور اللغوي[64].

ونص الزمخشري(538هـ) المشار إليه يتعلق بحديث أبي أيوب الأنصاري: "فوجدنا مراحيضهم استقُبل بها القبلة، فكُنّا ننحرف ونستغفر الله"[65].

قال الزمخشري: "المرْحاض موضع الرحض، كُنّي بها عن مطرح العَذرة، وجميع أسمائه كذلك، نحو الغائط والبراز والكنيف والحُشّ والخلاء والمخرج والمستراح والمتوضأ، كلما شاع استعمال واحدٍ وشُهِرَ انتقل إلى آخر[66].

فقد ذكر الزمخشري مجموعة من الأسماء التي يطلقها العرب على مكان قضاء الحاجة؛ مشيراً الى أن استعمال اللفظ الدال على هذا المكان يتعرّض إلى الإبتذال كلما شاع واشتهر، ومن ثم يسعى الإنسان إلى إنتاج اسم جديد يُحسِّن فيه اللفظ الذي قد ابتذل، وهذا هو لُبّ قانون اللامساس المذكور آنفاً.

النتائج:

يمكن تلخيص النتائج التي توصّل إليها البحث بما يأتي:

1- اتسع مفهوم غريب الحديث وانتقل من مستوى الأداء اللغوي للمفردة إلى مستويات تركيبية نحوية، وبلاغية مختلفة؛ تمشياً مع ظروف العصر ومتطلباته، كما اتسع هذا المفهوم أيضاً إلى مستويات معرفية أوسع كعدول المفردة من الحقيقة إلى المجاز، وبيان المعجم اللغوي لها.

2- شكّلت كتب غريب الحديث مصادر أساسية لصناعة المعاجم من حيث المادة اللغوية، وذلك ككتاب النهاية لابن الأثير الذي اعتمده ابن منظور في لسان العرب.

3- سبقت كتبُ الغريبِ المعاجمَ اللغويةَ في اعتماد الترتيب الهجائي لأوائل الكلمات كأساس لترتيب المواد اللغوية، إذ يعتبر أحمد بن محمد الهروي المتوفي (401 هـ) صاحب كتاب الغريبين هو أول من ابتدع هذا الترتيب الذي أخذه عنه علماء اللغة، وفي طليعتهم الزمخشري (ت 538هـ) في معجمه أساس البلاغة الذي يعتبر أول من اتبع الترتيب الألفبائي لأوائل الكلمات في تاريخ المعاجم اللغوية العربية.

كتب غريب الحديث مصادر أساسية في الكشف عن التطور الدلالي الذي حدث لكثير من كلمات اللغة العربية، وبالتالي فهي مصادر أساسية للمعجم التاريخي للغة العربية الذي يقوم أساساً على فكرة التطور.

الهوامش

(1) انظر: عبد التواب، فصول في فقه العربية، ط6، ص108-111 و229.

(2) هذه قضية شائكة في النحو العربي إذ إن الاستشهاد بالحديث النبوي في المستوى النحوي والصرفي واقع عند جميع النحاة الأوائل منذ أيام سيبويه، وحتى عند من قال بمنعه كابن الضائع وأبي حيان الأندلسي، للإطلاع على تفاصل هذا الموضوع انظر: الأفغاني، في أصول النحو، ص46-58. وانظر الشاعر، النحاة والحديث النبوي، ط1، ص 61-93.

(3) انظر هذه الآراء عند ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر، 1/5-6. وانظر كذلك نصار، المعجم العربي نشأته وتطوره. 1/49-وما بعدها.

(4) حققه حسين محمد محمد شرف ومحمد عبدالغني حسن.

(5) حققه عبدالله الجبوري.

(6) حققها سليمان بن إبراهيم بن محمد العايد.

(7) حققه عبدالكريم إبراهيم العزباوي، معهد البحوث العلمية.

(8) حققه محمود الطناحي.

(9) حققه علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم.

(10) حققه محمود محمد الطناحي وطاهر أحمد الزاوي.

(11) انظر عن جهود هؤلاء العلماء في هذا الموضوع عند حسين نصار، المعجم العربي نشأته وتطوره، 1/51-56.

(12) انظر التفريق بين الغريب من الحديث وغريب الحديث في مقدمة حسين محمد محمد شرف محقق غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام 1/51.

(13) انظر ابن قتيبة، غريب الحديث، ط1، 1/21 (مقدمة المحقق). وانظر المعاني المختلفة لغريب الحديث عند السيد الشرقاوي، معاجم غريب الحديث والأثر والاستشهاد بالحديث في اللغة والنحو، ط1، ص9-48.

(14) انظر السيد الشرقاوي، معاجم غريب الحديث والأثر والاستشهاد بالحديث في اللغة والنحو 26.

(15) انظر مقدمة محقق غريب الحديث لابن قتيبة 1/23.

(16) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 1/3.

(17) انظر: ابن فارس، مجمل اللغة، ط1، 1/31، 1/143.

(18) انظر: الأزهري، تهذيب اللغة، 1/31 و1/14 (مقدمة التهذيب).

(19) انظر السابق 1/12، 7،222،22،21،15،13/590، 9/64، 11/14،280/82.

(20) انظر الصاغاني، العباب الزاخر واللباب الفاخر، ط1، ص 7.

(21) انظر ابن منظور، لسان العرب، 1/7-9.

(22) ابن منظور، لسان العرب 1/807.

(23) هذه الأماكن التي صرح فيها ابن منظور باسم ابن الاثير، على أنه قد استفادة منه في مواضع أخرى لم يصّرح فيها بابن الاثير.

(24) انظر مثلاً 13/204و15/225.

(25) انظر 15/369.

(26) انظر 8/291.

(27) انظر 1/436، 12/72.

(28) انظر 2/440 7/292.

(29) انظر 8/71 12/139.

(30) انظر 1/311.

(31) انظر 1/160.

(32) انظر 1/77 وقد استفاد منه كثيراً.

(33) انظر 1/198 2/ 115.

(34) انظر 7/431.

(35) انظر 2/304 7/52 11/42.

(36) انظر: ابن الأثير، النهاية 1/13 باب الهمزة مع الباء، مادة أبب.

(37) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 1/205، مادة أبب.

(38) انظر ابن الأثير، النهاية 1/13- 14 باب الهمزة مع الباء، مادة أبر. وابن منظور، لسان العرب، 4/3، مادة أبر

(39) انظر مثلا مادة البيان والبين في الكتابين

(40) انظر مناهج أصحاب علم غريب الحديث في ترتيب مواد كتبهم وطرق التعامل مع الألفاظ الغريبة عن السيد الشرقاوي، معاجم غريب الحديث والأثر والاستشهاد بالحديث في اللغة والنحو

(41) ياقوت الحموي – معجم الأدباء 11/275.

(42) انظر أبا عبيد أحمد بن محمد الهروي، كتاب الغريبين، 1/6.

(43) انظر حسين نصار، المعجم العربي، نشأته وتطوره، 2/693.

(44) عبدالعزيز، المعجم التاريخي للغة العربية، وثائق ونماذج، ط1، ص 11.

(45) انظر هذه الجهود في الكتاب السابق 25-72. وانظر كذلك في الكتاب ذاته 163-205.

(46) انظر عبد العزيز، المعجم التاريخي للغة العربية وثائق ونماذج، ص31.

(47) انظر هذه الأشكال عند ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، الطبعة 12، ص 190-191. وأحمد مختار عمر، علم الدلالة، ط5، ص 234- 239. على أن هذه الأشكال قد بلغت عند بعض المحدثين تسعة أشكال، إلا أنها تعود في حقيقة الأمر إلى الأشكال الثلاثة. انظر أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم ط1، ص56.

(48) سنقتصر على ذكر أمثلة من كتاب النهاية لابن الأثير كونه المرجع الأساس الذي قامت عليه الدراسة، وعلى أمثلة من

كتاب الفائق للزمخشري في بعض الأحيان.

(49) انظر: الزمخشري، الفائق في غريب الحديث 307/1 مادة حلب.

(50) السابق نفسه 2/ 102 مادة زبد.

(51) النهاية 416/2. وقد رواه أحمد في مسنده 324/4.

(52) النهاية 416/2

(53) النهاية 445/1، رواه أحمد في مسنده 56/5.

(54) النهاية 288/4

(55) النهاية 288/4.

(56) النهاية 340/1 والحديث رواه مسلم 975/2.

(57) النهاية 340/1.

(58) النهاية 295/1، رواه البيهقي في السنن الكبرى 93/1.

(59) الفائق 318/3، والحديث رواه الحاكم في المستدرك 273/1.

(60) الفائق 318/3.

(61) تاج العروس 19/15 مادة برز).

(62) النهاية 88/2، والحديث رواه الحاكم في المستدرك 76/4.

(63) النهاية 88/2.

(64) ظاهرة اللامساس أو المحظور اللغوي هي ترجمة لكلمة (taboo) وتطلق على كل ما هو مقدّس أو ملعون يحْرُم لمسه أو الاقتراب منه، من الأشياء وأسمائها، بسبب الاعتقاد الخرافي في سحر الكلمة، فإذا اصطدمت كلمة ما بحظر الاستعمال، تحت تأثير عامل اللامساس، حلّت محلها كلمة أخرى خالية من فكرة الضرر والأذى. وتعتبر فكرة اللامساس هذه من القوانين التي تفسر لنا بعض أنماط التطور الدلالي للألفاظ.
انظر: ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة 202 وما بعدها، وانظر كذلك: عبد التواب، فصول في فقه العربية، ط 6، ص 345.

(65) غريب الحديث لأبي عبيد 143/3، النهاية 208/2، رواه أبو داود في سننه 3/1 وفيه كلمة مراحيض بلا إضافة.

(66) الفائق 71/2.

المصادر والمراجع

ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري(606هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي، 1979م، المكتبة العلمية، بيروت.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني(395هـ)، مجمل اللغة، تحقيق هادي حسن حمودي، 1985، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت، ط1.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني(395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت.

ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة الدينوري(276هـ)، غريب الحديث، تحقيق عبد الله الجبوري، 1977، مطبعة العاني، بغداد، ط1.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي(711هـ)، لسان العرب، دار صادر – بيروت.

أبو عبيد، القاسم بن سلام(224هـ)، غريب الحديث، تحقيق حسين محمد محمد شرف، مراجعة عبد السلام محمد هارون، 1984 م، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية.

أبو عودة، عودة، 1985، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم دراسة دلالية مقارنة، مكتبة المنار، الأردن– الزرقاء، ط1.

أحمد مختار عمر، 1998م، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط5.

الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد الهروي(370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مراجعة محمد علي النجار.

الأفغاني، سعيد، 1987م، في أصول النحو، المكتب الإسلامي، بيروت ودمشق.

أولمان، ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، 1997م، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة 12.

الحموي، ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي(626هـ)، معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، 1993م، دار الغرب الإسلامي.

الزبيدي، مرتضى الزبيدي بن محمد(1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، ط1.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي(538هـ)، الفائق في غريب الحديث، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، 1993م، دار الفكر للطباعة والنشر.

الشاعر، حسن موسى، 2010م، النحاة والحديث النبوي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ط1.

الشرقاوي، السيد، 2011م، معاجم غريب الحديث والأثر والاستشهاد بالحديث في اللغة والنحو، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1.

الصاغاني، رضي الدين الحسن بن محمد(577هـ)، العباب الزاخر واللباب الفاخر، تحقيق فير محمد حسن، 1978 م، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ط 1.

عبد التواب، رمضان، 1999م، فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي بالقاهرة ط6.

عبد العزيز، محمد حسن، 2008، المعجم التاريخي للغة العربية وثائق ونماذج، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع مصر، ط1م.
نصار، حسين، المعجم العربي، نشأته وتطوره، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة.
الهروي، أبو عبيد أحمد بن محمد (401هـ)، كتاب الغريبين، تحقيق محمود محمد الطناجي، 1970 م، لجنة إحياء التراث الإسلامي بمصر.

The Effect of Ghareeb Al-Hadeath Books on Arabic Dictionaries

Mahmoud Obaidat, Hussein Ghawanmeh*

ABSTRACT

The aim of this research is to study the effect of Ghareeb Al-Hadeath books on the Arabic dictionaries. The effect of Ghareeb Al-Hadeath on the present dictionaries can be summarized in two points:

- The linguistics material presents dictionaries depended on Al-Ghareeb books in their linguistics material, such as in Lissan Al-Arab, that made one of his five main resources: Ibn Al-Atheer's "Al-Nihaya" book.
- linguistics material classification method. Ghareebayn book was first applied on preceding Azzamakhshari's book Asaas Al Balaghah.

In the future, studies have shown that Ghareeb Al-Hadeath books are considered as a main resource for the historical Arabic language dictionary, concentrating on the semantic development of Al Hadeath terms, which present a limited phase in the Arabic language.

Keywords: Ghareeb, Al-Hadeath, Dictionaries.

* University of Islamic Sciences; and Al-Isra' University, Jordan. Received on 27/5/2013 and Accepted for Publication on 20/11/2013.